

مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ۲۵، الشتاء ۱۳۹۱ هـ.ش/ ۲۰۱۲ صص ۱-۲۲

## السخرية السياسية في شعر دعبيل الخزاعي

جمال طالبی قره قشلاقی<sup>۱\*</sup>، عبدالغنی ایروانی زاده<sup>۲</sup>، نصرالله شاملی<sup>۳</sup>

الملخص:

دعبيل الخزاعي أكبر شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول وبداية العصر الثاني، ذلك العصر الذي عُرف بالثبات والاستقرار من الناحية السياسية، وكثرة المذاهب والنحل من الناحية الفكرية والعقيدية؛ نشأ الشاعر في الكوفة، وقد غدّت روحه من ينابيع الشيعة وانطبعت بطابعها؛ شبّ دعبيل على الإحساس بالظلم و الاضطهاد، ولقّب بالشاعر المهجّاء الذي حمل خشبته على عاتقه منذ خمسين سنة باحثاً عمّن يصلبه عليها. تصدّى الشاعر في كثير من أشعاره للانحراف و الأوضاع السياسية الفاسدة، و قام بتنوير الرأى العام و توعية المجتمع العباسي. من خلال نظرتنا إلى أشعاره تبين أنّه استخدم في أدبه السياسي روحاً تمكّميةً ساحرة في هجاء الخلفاء العباسيين، و وزرائه و ولاته و نقد النظم السياسية القائمة، و استطاع أن يصوّر الحكم المتقلّب و الحالة القلقة و الانحطاط السائد و تبلبل الأمور و فوضى الأعمال في هذه الفترة. كما تبين أنّ الشاعر لم يقصد من هجائه الساخر، الإضحاح و الهزل، بل كانت سخريته ذات أهداف سياسية و اجتماعية بّناءة. من هذا المنظور جاء هذا البحث لدراسة الجانب الساخر في شعره السياسي.

الكلمات الرئيسية: الأدب الشيعي، السخرية، الشعر السياسي، دعبيل الخزاعي، العصر العباسي.

<sup>1</sup> - طالب الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها بجامعة أصفهان. jamal\_talebii@yahoo.com

<sup>2</sup> - أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أصفهان.

<sup>3</sup> - أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أصفهان.

## المقدمة:

عرف العصر العباسي شاعراً لا يشقّ له غبار ولا يقارع في ميدان الهجاء والسخرية حيث كان ينفث التّار من لسانه الصّارم، فهو دعبل الخزاعي الذي رفع لواء المعارضة السياسية في القرن الثاني في مواجهة العباسيين، و وقف موقف المعارضة الصّريحة للحزب العباسي، الأمر الذي أكسبه موقفاً من العباسيين، و من الحياة نفسها، فلم يكتف بالتفجع لما أصاب العلويين من نكبات، و لم يقنع بتأكيد حقّهم، بل هجا بني العباس هجاء مرّاً (إسماعيل، ۱۹۷۵، ۶۲). فكم من أناسٍ عاصروا دعبلاً وشهدوا ما شهد ولبثوا صامتين إمّا خوفاً و إمّا تملّقا و إمّا استدراراً للحظوة، بينما ثار دعبل دون تقيّة (الخواوي، ۱۹۸۸، ۴۷۷).

لعلنا نظنّ بادئ ذي بدء أنّ دعبلاً شاعر تكثّفت الدراسات المتعلّقة بشعره، غير أنّنا لم نحصل على شئ كثير يدرس شعره خاصّة الزاوية التي تعني بما نحن بصددّه، فأهمّ الدراسات التي يتناول شعره هي: مقالة لكاتبها الدكتور عبدالكريم الأشتر نشرتها مجلة الموقف الأدبي في عددها ۳۶۶ حيث درس فيها المديح السياسي و أتى بإشارات مختزلة حول الهجاء السياسي في شعره؛ و مقالة ثانية نشرته مجلة المنهاج في عددها الثامن عن الأستاذ علي البهادلي تحت عنوان "الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي" و أخيراً رسالة بعنوان "الرؤية و الأسلوب في شعر دعبل الخزاعي — دراسة أسلوبية— بجامعة الحاج لخضر. كانت هذه الدراسات حافزة لنا ليكون هذا البحث أكثر عمقاً في تجربة دعبل الساخرة. لذلك حاولنا أن نتقرّب إلى ساحة الشاعر الساخرة، والذي حاولنا في هذا البحث المتواضع تحقيقه ما يلي:

۱— ماهي الدوافع التي دفع الشاعر إلى استخدام أسلوب ساخر في شعره السياسي؟

۲— ما هي الميزات التي طبعت بها السخرية السياسية في شعر دعبل؟

ستحاول هذه الدراسة الإيفاء بالإجابة المقنعة عن هذه الأسئلة علّها تسهم بشكل أو آخر في عمليّة إيضاح أبعاد السخرية السياسية عند دعبل الخزاعي.

## ۱— لماذا السخرية؟

إنّ الفترة التي يعيش فيها الشاعر والأديب قد تملّي عليه استخدام لغة معيّنة وأسلوب خاصّ في نتاجاته الأدبية، وهذا الأمر يتجلّى بشكل سافر في الأدب السياسي. نحن نلاحظ هذه الميزة بصفة خاصّة عند شعراء الشيعة في سبيل معارضتهم السياسية، فهولاء رغم الظروف الصعبة التي عاشوها استخدموا أشكالاً مختلفة في الردّ على السلطة السائدة. إذا رجعنا إلى العصر

الأموي، هناك يلقانا الكميّ بن زيد الأسدي شاعر الشيعة الكبير الذي قام بمعارضة الأمويين، ونرى النقاد والباحثين يكادون يتفقون على أنّ شعره يطبع بطابع الاحتجاج والاستدلال واستخدام المنطق في مواجهة خصومه (انظر: مغنية، ۲۰۰۹م، ۱۹۶). ولا بدّ أن نعرف أنّ عقليّة العصر وبعدها عن الحضارة العميقة كانت من الدوافع الرئيسية وراء ذلك. حينما ندخل العصر العباسي تتغيّر عقليّة العصر فتتغير مظاهر الحياة، ويتطلّب ذلك شكلاً آخر من اللغة وأسلوباً جديداً من التعبير. لم يكن ذلك الشكل والأسلوب إلّا الفكاهة واستعمال طابع ساخر في الأدب. ومن هناك أصبحت السّخرية في العصر العباسي ظاهرة تلح علينا في الوقوف عليها ومتابعتها والتعرف إلى شعرائها الذين صاغوا لنا آراءهم وأفكارهم بأساليب ساخرة، فخرجت حية نابضة تعبر عن موقف رافض و متمرد أحياناً، وعن مشكلات نفسية واجتماعية أحياناً أخرى. وقد شملت سخريتهم قضايا متعددة، نستطيع من خلال قراءتها أن ندخل إلى تناقضات شتى عاشها ذلك المجتمع وأثرت فيه. عكست أصداء ذلك التطوّر في ساحة الحياة والتفكير في إبداعات الشعراء وأساليبهم التعبيرية، فنرى المهجاء يحدث فيه تطوّر جذريّ، إذ مال الشعراء إلى المهجاء الساخر الذي يستهدف إضحاك الناس على المهجوّ وسخريتهم منه (انظر: هدارة، ۱۹۶۳م، ۴۳۳).

إنّ السخرية سلاح أوتى بعض الشعراء في مقاومة الظلم والجور، وإثبات تعدّ مظهرًا من مظاهر المقاومة الشخصية والتمرد على الظلم، فدعبل الخزاعي بوصفه شاعراً متمرداً لم يتخلّف في أسلوبه الشعريّ عن استخدام هذا السلاح، بل بلغ في شعره الساخر السياسي شأنًا مميّزًا وترك بأسلوبه الساخر الناقد أثرًا بارزاً في الأدب العربي، وكان رائداً في هذا الفنّ الشعريّ.

### ۳. السخرية السياسية قبل دعبل

لعب الشعر السياسي المطبوع بطابع السخرية دوراً خطيراً في ميدان السياسة بما يملك من تأثير و قدرة ساحرة على لفت الأنظار وجذب الانتباه نحو الظواهر البارزة في نظم الحكم الفاسدة أو أخلاق بعض الساسة وانحرافهم. يرى ابن رشيق أنّ السخرية لها تأثير شديد إذ يردّد أن التعريض أهجى من التصريح ويعلل ذلك "باتساع الظن في التعريض، وشدة تعلّق النفس به، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته" (ابن رشيق ۲۱۹۰۷: ۱۷۲-۱۷۳).

لم يعرف الأدب العربي الشعر السياسي الساخر في العصر العباسي، بل شهدته في عصوره السابقة فنجد بعض الشعراء يسخرون سخرية سياسية من الخلفاء والوزراء وسوء مسلكهم كما نجد عند عتبة الأسيدي يهجو معاوية:

مَعَاوِيَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجَحُ      فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ  
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا وَحَدَّذْتُمُونَا      فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَاصِدِ  
فَهَبْنَا أُمَّهُ هَلَكْتَ ضِياعاً      يَزِيدُ أَمِيرُهَا وَأَبُو يَزِيدِ  
أَتَطْمَعُ بِالْخُلُودِ إِذَا هَلَكْنَا      وَلَيْسَ لَنَا وَلَا لَكَ مِنْ خُلُودِ  
ذَرُوا حَوْلَ الْخِلاَفَةِ وَأَسْتَقِيمُوا      وَتَأْمِينِ الْأَرَاذِلِ وَالْعَبِيدِ

(البلاذري، لا، ٥: ٦٤)

يسخر الشاعر فيما سبق من سياسة معاوية الظالمة مطالباً حقوق قبيلته السياسية كما يسخر من تقريب الأراذل والعبيد، ولاشك أنه استوحى تلك الأبيات من الخلق العربي الذي لا يرتضي الذل والانقياد.

ونرى بشّاراً رغم انشغاله بلون آخر من الأدب لم ينسَ الخوض في ميدان السياسة بل ساهم فيه مساهمةً وحاول أن يدلي بأرائه عسى أن يكون رادعاً لممارساتٍ سياسيةٍ ودينيةٍ غير مقبولة والتحرّيز عليها بهدف القضاء عليها وتنقية المجتمع من آثارها السلبية إذ يسخر من الخليفة المهديّ وضياع الأمر من يده إلى يعقوب بن داود قائلاً:

بَنِي أُمَّيَّةَ هُبُوا طَالَ نَوْمُكُمْ      إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بَنُ دَاوُدِ  
ضَاعَتْ خِلاَفَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالْتَمِسُوا      خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الزَّقِّ وَالْعُودِ

(بشّار، ١٩٥٠، ٣: ٩٤)

يسخر بشّار من ضعف الخليفة لاستيلاء الوزير على مقاليد الدولة، وكأنه يستنهض الأمويين لاستعادة الخلافة، وهذا لا يعني أنه يتمنى عودة الخلافة إلى الأمويين، بل يريد أن يبلغ في الإيلام والإيجاع للعباسيين حتى يسيطر الخليفة على كل شيء. لا شك أن السخرية السياسية لدى هؤلاء الشعراء وقفت عند حدود ضيقة ولم تتجاوز آياتاً قليلة تأتي من حين إلى

آخر، كما أن شعرهم لم يبلغ إلى مرحلة ناضجة فنياً وبيانياً، لكنّ دعبل فاق الشعراء العرب في العصر العباسي من حيث أسلوبه الساخر وما عرف عنه من جرأة وصراحة التعبير.

#### ٤. الهجاء الساخر في شعر دعبل

لعلنا لانبعد عن الموضوعية إذا ادّعينا أن دعبلاً الخزاعي رائد السخرية السياسية في العصر العباسي الأول كما يرى أحد الباحثين (انظر: الشكعة، ١٩٨٦م، ٣٢٧) إذ هو شاعر متمرد من طراز خاص استوعب مسؤوليته الاجتماعية و مكانته المتميزة بين شعراء الشيعة فأشار إلى مواضع الفساد والتزلف مستخدماً أساليب مختلفة للتعبير. لعلّ الطابع الساخر أهم وأبرز هذه الأساليب في شعره السياسي إذ اتخذ هذا الشاعر الكبير السخرية منهجاً فكرياً ولغوياً أثرت في مضامينه الشعرية وفي أسلوبه على السواء. كانت هناك أسباب و دوافع شتى حمل الشاعر على أن يعطي لشعره طابعاً ساخراً.

نتساءل أنفسنا في بداية الحديث عما جعل دعبلاً لماذا يلجأ إلى السخرية في شعره السياسي؟ و الرد أن السخرية السياسية عند دعبل لم تكن من طبعه وفطرته كما ظنّ البعض، بل كان مكتسباً مستمداً من بيئته الفاسدة التي أوحى له بضرورة النقد الهادف لإصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه، لأنه كان كارهاً للجور والفساد. إنه لم يكن يتكئف مع مجتمعه بما شعر فيه من فساد واضطهاد، ثم دفعه إلى التضادّ والمعارضة، فعبر عن شعوره ذلك تعبيراً عنيفاً وانتقد فساد عصره أعنف نقدٍ وسخر منه أعظم سخرية.

كان عصر دعبل يطغى بالفوضى والاضطراب، والصراع والمنازعات من الناحية السياسية للاستيلاء على الخلافة، وبالظلم والجور والاستبداد على محبي أهل البيت (ع). وما كان لدعبل إزاء هذه الأمور إلا أن يلعب دوره الرسالي في معارضة النظام السياسي الفاسد، فنرى أنه أحسن أن السخرية سلاح تتمتع بميزة هامة وهي سرعة انتشارها بين طبقات المجتمع المختلفة، فلذلك جحّح إلى طابع ساخر حتى يؤثر شعره في المتلقين وينتشر بسرعة بالغة في الآفاق.

كان تشييع دعبل الخزاعي وإيمانه بأل البيت عليهم السلام أهمّ البواعث باعتقادنا إذ حمّله على المعارضة بشكلٍ لاذع، ومن جرّاء ذلك قام بالدفاع عن أحقيّتهم في تولّي الخلافة وإدارة شؤون المجتمع. لعلّ ما ذكرنا كان من أهمّ البواعث التي دفع الشاعر إلى السخرية السياسية في شعره.

## ٤-١. أسلوب دعبل في شعره السياسي

استخدم دعبل الخزاعي في شعره السياسي الساخر أساليب شتى تبدت للدارس في الأطر التالية:

## ٤-١-١. السخرية

تعدّ السخرية من أبرز ملامح التحول في الموقف الشعري عند الشعراء العباسيين، فالصدام بين هؤلاء الشعراء ومجتمعهم وتقاليده الحياة في عصورهم وصل حد الرفض والإنكار والثورة أحياناً (انظر: عطوان، ١٩٧٠م، ٩-٣٣). وهذا عائد إلى الظروف التي غيّرت وجه المجتمع ومنحته شكله الجديد لما نشأ من صراع سياسي وآخر شعوبي واضطراب في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ثم تطور الحياة الفكرية والعقلية (انظر: العشماوي، ١٩٨١م، ١٢٨).

إنّ دعبلاً بوصفه شاعراً عاش في الفترة العباسية لم يتخلّف عن مواكبة هذا الفنّ الشعري المؤثر جداً، بل استخدم السخرية في جوانب مختلفة من شعره خاصة في شعره السياسي؛ فجاءت السخرية عنده نتيجة للصراع الموجود بين عالمه الداخلي وبين قوّة سياسية كان يرفضها ويقاوم إزاءها. يرى بعض الباحثين أنّ الشاعر قد يلجأ إلى السخرية عندما لا يكون قادراً على إبراز غضبه، فتصبح السخرية ملاذاً نفسياً له فنراه يقول إنّ "الشعراء يلجأون إلى استخدام الأسلوب الساخر نتيجة لعوامل متعددة لعل أهمها الخوف من السلطة الحاكمة" (محمد الحوفي، ١٥). إنّنا حين ندرس حياة دعبل ونسمع كلمته المشهورة التي يقول: "أحمل خشبيّ منذ خمسين سنة على عاتقي ولا أجد أحداً يصليني عليها"، سرعان ما ندرك بوضوح أنّ السبب في لجوءه إلى السخرية لم يكن خوفه من السلطات الحاكمة بل يعود إلى أنّ الشاعر أراد بهذا أن يقارع الحكومة العباسية الزائفة، ويهَيئ الأجرأ حتى ينتشر شعره السياسي أكثر فأكثر، لأنّ الكلام إذا امتزج بالسخرية يتعلّق بالنفس بسرعة بالغة ويبقى أمداً طويلاً.

كان هارون الرشيد أول خليفة من خلفاء بني العباس سخر منه دعبل، فلمّا شعر أنّ الرشيد يحاول اجتذاب الشعراء والأدباء لدعم سلطته وتأييد نظريته الوراثية في الخلافة من جانب، وليكون بعيداً عن خصوم الخلافة من جانب آخر، سرعان ما انقلب وكشف حقيقة خطّته بقوله:

وَعَاثَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ فِي الدِّينِ عَيْثَةً      تَحَكَّكُمْ فِيهِ ظَالِمٌ وَظَلَمِينَ

وَسَمَّوْا رَشِيداً لَيْسَ فِيهِمْ لِرُشْدِهِ      وَهَذَا ذَاكَ مَأْمُونٌ وَذَاكَ أَمِينٌ

فَمَا قُبِلَتْ بِالرُّشْدِ مِنْهُمْ رِعَايَةٌ      وَلَا لِيُؤَلِّيَ بِالْأَمَانَةِ دِيْنُ  
رَشِيْدُهُمْ غَوَاوٍ وَ      لِهَذَا رَزَايَا دُونَ ذَلِكَ مُجُونُ

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٨٩)

وأى سخرية أبلغ وأقسى من هذا؟ فالشاعر لا يسخر في الأبيات السابقة من قضية عدم النصح السياسي عند هارون الرشيد فقط، بل تتعدى سخريته إلى الوضع الذي آلت إليه الأمور، فالخليفة ضالٌّ وكذلك ابنه، وهما يخونان الدين الذي هو أمانة بأيديهما. كل ذلك أدى إلى تدهور الأمور في البلاده، وأين الشعب من كل ذلك؟ الشعب في حالة ضياع وظلم، فكيف يستطيع هذا الشعب أن يشكو أمره وأن يبلغ طلبه، ولما يبلغ خليفته ووليَّ عهده رشده بعد. فكانت هذه السخرية سلاحاً بيد الشاعر في محاربة الظلم والفساد ومقاومة الجور والطغيان أو على الأقل كانت تلفت الحكام إلى مثل هذه الأوضاع.

ومن الأحداث الخطيرة التي واجهها العصر العباسي ولفتت انتباه المؤرخين خلافة إبراهيم بن المهدي، فبعد أن قتل الأمين في بغداد كان المأمون لا يزال في مدينة طوس التي اتخذها عاصمة له فرشحت حاشية القصر في بغداد عمّ المأمون المغني المشهور إبراهيم بن المهدي للخلافة. نرى دعبل يصوّر هذه الحادثة في شعره قائلاً:

نَعَرَ ابْنُ شَكْلَةَ بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ      فَهَقَّأَ إِلَيْهِ كُلُّ أَطْلَسَ مَائِقِ  
إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُضْطَلَعًا بِهَا      فَلْتَصُلْحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخَارِقِ  
وَلْتَصُلْحَنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِرِزْلِ      وَلْتَصُلْحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمَارِقِ  
أَتَى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ      يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسِقٌ عَنِ فَاسِقِ

(المصدر نفسه، ٢٤٤)

هنا هاجم دعبل كلَّ من بايع إبراهيم، واتهمهم بالحماقة والبلادة، وأنكر عليهم تسليم الخلافة للفاسق. أما البيتان الأخيران فهما في بيتا الهزء و السخرية؛ لأنَّ الشاعر يعتقد أنَّ الخلافة إذا صحَّت لإبراهيم، فولاية العهد تكون لمخارق وتصلح فيما بعد لزلزل والمارق وكلهم من مغني ذلك العصر. ولا شكَّ أنَّ دعبلاً قد استمدَّ جرأته من تشييعه وحبّه لآل البيت عليهم السّلام

وهذا الأمر دفع أساسي وراء هذه السخرية. لم يكن دعبل من وراء الأبيات السابقة يهدف إلى التندر وإبراز العيوب للتشفي فقط، وإنما هي سخرية بناة بأسلوب ترفع عن سطحية العوام، و وسيلة سلكها الشاعر ليصل إلى هدف أسمى وأنبل من مجرد إثارة الضحك.

ونرى دعبلًا يتناول تلك المسألة في مقطوعة أخرى، وكأنه يريد أن يحطم هيبة الخلافة العباسية ويقرنها بالعبث والفسق والانحلال، ويحيل خلافة بني العباس التي زعموا أنها جاءت لنصرة الدين خلافةً كتابها آلات اللهو واللعب:

يَا مَعْشَرَ الْأَجْنَادِ لَا تَقْنَطُوا      وَأَرْضُوا بِمَا كَانَ وَلَا تَسْخَطُوا  
فَسَوْفَ تُعْطَوْنَ حُنَيْنِيَّةً      يَلْتَذُّهَا الْأُمُرْدُ وَالْأَشْمَطُ  
وَالْمَعْبِدِيَّاتُ لِقُودِكُمْ      لَا تَدْخُلُ الْكَيْسَ وَلَا تُرْبَطُ  
وَهَكَذَا يَرزُقُ أَصْحَابَهُ      خَلِيفَةً مُصْحَفُهُ الْبِرْبَطُ  
قَدْ خَتَمَ الصِّكَّ بِأَرْزَاقِكُمْ      وَصَحَّحَ الْعِزْمَ فَلَمْ تُعْمِطُوا  
بِعِيسَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَشْؤُومَةً      تُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ تُفْحَطُ

(المصدر نفسه، ٢١٩)

تعدّ هذه الأبيات من أجمل سخريات دعبل السياسية اللاذعة حيث صور الجنود والناس يطالبون رواتبهم من الخليفة المعني (ابراهيم بن المهدي) قبل أن يتنازل عن الخلافة للمأمون. أصيبت الدولة — على أساس ما ذكرته المصادر التاريخية — زمن خلافته بعجز مالي فاجتمع الناس والجنود والضباط أمام القصر وهم يطلبون رواتبهم، وظهر مندوب الخليفة قائلاً لهم إن الخليفة ليس عنده مال يدفعه لكم. فالشاعر أراد أن يقول إن الذين اجتمعوا قد رضوا بأن يعنى الخليفة لهم بدلاً من أن يدفع لهم رواتبهم. وقد ركز الشاعر في الأبيات السابقة على المفارقة البارزة. و"ما من شكّ في أن للصورة الفنية الساحرة في شعر دعبل قيمة وهدفاً فلم تكن حشواً ولا هزلاً خالصاً، بل كانت تساعد على تجديد النشاط وتوليد الشعور السليم وإزالة الانقباض و تجديد الراحة وتزليل التوتر والانقباض وتشريح الصدور وتقويم الأخلاق، تحافظ على التقاليد وأوضاع المجتمع وتصحيح الإعوجاج وتربي ملكة النقد وتوقظ التنبيه إلى الأخطاء



وتجسيم النقائص ليضحك الناس من كلِّ ما يلحظون فيه مخالفة للمألوف" (محمد عويصة، ١٩٩٣م، ١٧٧).

بدأت سيطرة الأتراك على زمام الأمور منذ بداية خلافة المعتصم وهؤلاء. على ما ذكرت المصادر التاريخية — عاشوا في البلاد عيشاً، فنرى دعبلاً لم يسكت أمام هذا الأمر بل نظم أشعاراً كثيرة فيه. لعل ما نذكره أصدق وصف لتلك الحالة التعمسة التي مرَّ بها الخلفاء العباسيون، فنرى الشاعر يشير في قصيدة له تبلغ اثني عشر بيتاً إلى ما بيناه سابقاً. يقول:

لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكُهُمْ      وَصَيْفٌ وَأَشْنَسٌ وَقَدْ عَظُمَ الْخَطْبُ  
وَفَضْلُ بَنِ مَرْوَانَ سَيِّئَلُمُ ثَلَمَةً      يَظَلُّ لَهَا الْإِسْلَامُ لَيْسَ لَهُ شِعْبُ  
وَهُمْ كَثْرَكِيٌّ عَلَيْهِ مَهَائَةٌ      فَأَنْتَ لَهُ أُمَّ وَأَنْتَ لَهُ أَبُ

كأن الشاعر ينقل لنا صورة معيّرة عن أوضاع تلك الفترة، الفترة التي امتزجت بمعاناة الشعب، وكانت شاهداً على طغيان النظام والاستبداد الذي حوّل الحياة إلى جحيم. ولقد جعل من هذه السخريات لافتات مهتزة تنبه الأذهان إلى الأوضاع الفاسدة السائدة وتجدد مشاعر الكراهية للخلفاء وتشعل نار الغضب، كما أنها تدلّ على تدمر الشاعر من حال الحكم وتسلب الأتراك على الخلافة وتسيير الخلفاء حسب أهوائهم، فلذلك يقول إن الناس ضاعت أمورهم وهذه للمأساة عظيمة. ونرى الشاعر يرسل إلى المعتصم مقطوعةً بعد خروجه من بغداد مغضباً وفيها نشعر السخرية بوضوح تام. اسمعه يقول:

بَعْدَادُ دَارُ الْمُلُوكِ كَأَنْتَ      حَتَّى دَهَاها الَّذِي دَهَاها  
مَا غَابَ عَنْهَا سُورُؤُ مُلْكِي      عَادَ إِلَيَّ بَلَدٌ سِوَاهَا  
لَيْسَ سُورُؤُ بِسُرٍّ مَنْ رَأَى      بَلْ هِيَ بُؤْسٌ لِمَنْ يَرَاهَا  
عَجَّلَ رَبِّي لَهَا خَرَاباً      بِرَعْمِ أَنْفِ الَّذِي ابْتَنَاهَا

(المصدر نفسه، ٣٠٧)

<sup>1</sup> — دها: من الداهية أي المصيبة والشدة. يريد أنها أصيبت بالثابة وأصبحت خربة.

والأبيات بحدّ ذاتها تقرير نفسي يفصح عن دخيلة الشاعر وإحساسه المرير، كما أنّها صرخة احتجاج حادّة تعبّر عن معاناته على الأصعدة كافّة. وأحياناً نرى دعبلاً أخذ يصوغ سخريته السياسية في ثوب جديد قديكون رمزياً يحمل كلّ مظاهر الاستخفاف والتحقير. لما مات المعتصم وتولّى الواثق الخلافة نرى الشاعر يصوّر فراغ الخلافة من معانيها كلّها، و إلى نفض الناس أيديهم منها وإدارة ظهورهم لها، وهو أمضّ ما بلغت سخريته السياسية من وضوح القصد مع كونه رمزياً. يقول الشاعر:

وَلَا عَزَاءَ إِذَا أَهْلُ الْبَلَاءِ رَقَدُوا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا صَبْرٌ وَلَا جَلْدُ  
وَأَخْرُ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدُ  
خَلِيفَةُ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدُ  
وَقَامَ هَذَا فَقَامَ الْوَيْلُ وَالتَّكْدُ  
فَمَرَّ هَذَا وَالتَّشْوُمُ يَتَّبِعُهُ

(المصدر نفسه، ١٦٨)

افتتح الشاعر أبياته بالشكر والحمد لله، على أن وافى المعتصم أجله، فلا صبر ولا جلد ولا عزاء، لأنّ من قضى نجبه من أهل البلاء والشرّ، فلا حزن على خليفة مات، ولا فرح على خليفة آت، فكُلّهما رديف الشؤم والويل والتكد. وفي تنكير كلمة "خليفة" ما يدلّ على استهزاء واستخفاف بالغ بالمعتصم وكذلك الأمر في كلمة "آخر" المقصود بها الخليفة الواثق. والنموذج الذي ذكرناه "يعد من قمة الشعر الساحر الذي عرفته عصور الأدب بحيث يعدّ وثيقة لمهزلة حكم السلاطين الذين يموتون فلم يحزن عليهم أحد وينصبون فلم يفرح بهم أحد، حيث تظلّ أمثلة هذا الشعر الساحر تعبيراً عن الحقائق الاجتماعية التي تتحدث عن أصوات الرأى العام وتصوراتهم للسلاطين" (البستاني، ١٤١٤، ٥٢٥). وإنا نستنبط ممّا سبق نقطتين هامتين، الأولى: ليس للسلطة العباسية شرعية دينية، لأنّها قامت على أساس الخديعة وأغتصبت السلطة من أصحابها الحقيقيين وهم أهل البيت عليهم السلام. والثانية: إن الحكومة لدى العباسيين لا تتمتع بميزة المقبولية عند جمهور الشعب، فما إن يموت خليفة حتى يأتي آخر، فلا جديد على مستوى التجديد السياسي حتّى أنّ العامّة من الناس لا يأهون بهذا التغيير، وهو تكرار يعكس حالة الضيق من العملية السياسية في هذا العصر، ويضيف دلالة الحسرة والتأسف على الوضع الذي آلت إليه مؤسسة الخلافة العباسية.

لما كان الخلفاء في العصر العباسي فاسدين وظالمين، فكان من الطبيعي أن يتسرّب السوء إلى

الوزراء والعمال والكتّاب وينتشر بينهم. كان دعبل يرصد أعمال هؤلاء المنتمين إلى السلطة العباسية، فلذلك نراه لاحق كاتب المأمون أبا عباد وسفّهه، وجمع إلى فشله في عمله بشاعة في صورته إذ جعله هائجاً يجرّ السلاسل خلفه. يقول:

أُولَى الْأُمُورِ بِضَيْعَةٍ وَفَسَادٍ      أَمْرٌ يُدَبِّرُهُ أَبُو عَبَّادٍ<sup>١</sup>  
 خَرِقٌ عَلَى جُلَسَائِهِ فَكَأَنَّهُمْ      حَضَرُوا لِمَلْحَمَةٍ وَيَوْمِ جَلَادٍ<sup>٢</sup>  
 يَسْطُو عَلَى كِتَابِهِ بِدَوَاتِهِ      فَمَرَّمَلٌ وَمُضْمَخٌ بِمِدَادٍ<sup>٣</sup>  
 وَكَأَنَّهُ مِنْ دَيْرٍ هَزِقِلَ مَفْلَتٌ      حَرْدٌ يَجْرُ سَلَسِلَ الْأَقْيَادِ  
 فَأَشَدُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَثَاقَهُ      فَأَصْحٌ مِنْهُ بِقِيَمَةِ الْحَدَادِ

(المصدر نفسه، ١٨١)

يقول الشاعر إنّ الأمور إذا كان مدبرها أبا عباد، لاشك أنّها تنتهي إلى الفساد لأنّه ضعيف الرأي لا يحسن عمله، والشاهد على ذلك سوء معاملته لجلسائه بحيث يشعرون كأنّهم حضروا في ساحة القتال، ثمّ شبهه بوحش وثب على فريسته وجعلها ملطّخةً بدمائها، وقد جعله مجنوناً تخلّص من بيت المجانين حاملاً سلاسل القيد في رجليه.

ودعبل بهذه الأبيات يجرّد أبا عباد من الخصائص الإنسانيّة وما تتبع من تكاليف أمثال العقل والتفكير، ويزله إلى منزلة الدوابّ بل أسفل منها. و"استطاع الشاعر في الوصول إلى غرضه من الهجاء أن يستخدم مجموعة من الصور مثل: خرق على جلسائه، ملحمة ويوم جلاّد يسطو بدواته، مضمخ بدم، كأنّه من دير هزقل مفلت، حرد يجرّ السلاسل، أشدّد وثاقه" (محمد عويصة، ١٥١) و جعله في موطن آخر أحد أركان الضعف في بيت الخلافة. اسمعه يقول:

<sup>١</sup> — الضيعة: الإهمال والفساد.

<sup>٢</sup> — خرق: أحمق. الملحمة: القتال. يوم الجلاّد: يوم الشدّة والقوّة.

<sup>٣</sup> — رمّل الثوب: لطّحه بالدم. ضمخ جسده وغيره بالطيب وغيره — ضمخاً: لطّحه به في كثرة.

مَا لِلخَلِيفَةِ عَيْبٌ إِلَّا أَبُو عَبَّادٍ  
قَرْدٌ بَنُوهُ قُرُودٌ تَأْوِي إِلَيَّ قَرَادٍ

هذا الاستخفاف وما صاحبه من الإحساس بالمرارة أو الحزن يقوم في صياغة السخرية مقام أشد الضحكات وقعاً، فالسخرية هنا لاذعة عنيفة. اعتاد الشاعر في سخريته السياسية على تجسيد القضايا الحيوية التي همّ جماهير عصره، واختار الأسلوب الساخر أداة لتصوير تلك المموم، لأنه وجد في السخرية طريقاً إلى عقول شعبه، فهي الأكثر حفظاً، وبالتالي فإنها قابلة للتأمل والإثارة وصولاً إلى التوعية والعمل على تغيير الواقع.

نرى أنّ السخرية السياسية عند دعبل إذا فقدت في بعض جوانبه كثيراً من جماليّتها بسبب خلوّها من الخيال إلّا أنّه استطاع أن يتدارك ذلك بصوره المكثفة التي تخرج سخريته من الرتابة والجمود، وتعطيها الحيويّة و النشاط كما نلاحظ فيما سبق. قال دعبل يهجو الحسن بن وهب لما ولى البريد:

أَلَا أبلِغُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا رِسَالَةَ نَاءٍ عَن جَنَائِيهِ شَاحِطٍ<sup>١</sup>  
بِأَنَّ ابْنَ وَهَبٍ حِينَ يَشْحَجُ شَاحِجٌ يُمِرُّ عَلَيَّ الْقِرْطَاسِ أَقْلَامَ غَالِطٍ<sup>٢</sup>  
أَحَبُّ بَعَالِ الْبُرْدِ حُبًّا مُدَاخِلًا وَعَادَ إِلَيَّ غِشْيَانِهَا فِي الْمَرَابِطِ<sup>٣</sup>  
وَلَوْ لَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَأَصْبَحْتُ أُيُورُ بَعَالِ الْبُرْدِ حَشْوَ الْخَرَائِطِ<sup>٤</sup>

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٢٣)

#### ٤-١-٢- التهديد

من المبادئ التي آمنت بها الشيعة هي التمرد على الظلم ومقارعة الظالمين، فقد انطلق دعبل من

<sup>١</sup> - الجناب: الناحية، وما قرّب من محلة القوم. شحط: بؤد.

<sup>٢</sup> - شحج البغل: صوت الشاحج: الحمار الوحشي. القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها. الغالط: الذي لم يعرف وجه الصواب.

<sup>٣</sup> - البرد: مفردا البريد، المسافة. المرابط: مفردا المرابط، موضع ربط الدواب.

<sup>٤</sup> - الخرائط: مفردا الخريطة، الكيس ونحوه.

هذا المبدأ إلى مقارعة الظلم، وكثيراً ما نراه يستخدم في سخريته السياسية التهديد كأسلوب لمواجهة السلطة العباسية، فحدث هذا الموقف بكثرة في وقوفه أمام المأمون، غير أن بعض الباحثين حاولوا التقليل من أهمية مواقف دعبل السياسية إبان خلافته ووصفوه بالمبالغة في العفو، فلذلك ذكروا أن هذه الصفة "دفعت الشاعر إلى التطاول عليه والتماذي في هجائه ونقده ومعارضته في جرأة مكشوفة في مواقف عديدة، كأنما كان يضمن عفوه" (محمد عويصة، ١٣).

ذكرت المصادر التاريخية أن المأمون لما صار خلىفة، أمر بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين إرضاء لهم، غير أن تطور الظروف في بغداد سرعان ما جعله يتراجع عن مواقفه إزاء الشيعة فتغيرت علاقته بالعلويين بتمزيق الخضرة شعار العلويين، فكان طبيعياً أن يتغير دعبل ويتخذ موقفاً مخالفاً لما كان من قبل. لذلك نراه يتفجر غضباً ويصبّ حمم غضبه على المأمون قائلاً:

أَيَسُومُنِي الْمَأْمُونُ حِطَّةً عَاجِزٍ      أَوْ مَا رَأَى بِالْأَمْسِ رَأْسَ مُحَمَّدٍ  
تُوفِي عَلَيَّ هَامَ الْخِلَافَةِ مِثْلَمَا      تُوفِي الْجِبَالَ عَلَيَّ رُؤُوسَ الْقَرَدِ

(دعبل، ١٩٧٢، ١٧٥)

وفي هذه الأبيات تتجلى ثورة الشعر لدى دعبل في أسلوب تمكيمي ساخر يفضح حكم المأمون الذي لم يحقق للشعب أيّ منجز يذكر، بل كان أداة هدم وخراب، إلا أن الحساب قادمٌ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. وهو بعد ذكر الأبيات السابقة التي تشبه مقدمة تمهد الأرضية للتطرق إلى الموضوع الرئيسي ينشد أبياتاً يدرس فيها العوامل التي ساعدت إلى توليه الخلافة، فيشتد غضبه فيقول مهدداً:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ      قَتَلْتَ أَحَاكَ وَشَرَّفْتِكَ بِمَقْعِدِ

<sup>1</sup> - رأس محمد: يعنى محمداً الأمين ابن زبيدة الذي حاربه طاهر بن الحسين. هام: مفرداها هامة وهى رأس كل شئ. القرد: ما ارتفع من الأرض وغلظ.

رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طُولِ خُمُولَةٍ وَأَسْتَنْقَدُواكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

(المصدر نفسه، ١٧٦)

إنَّ الشاعر يريد أن يكشف عن أيدٍ لها المنة العظمى على المأمون في الوصول إلى الخلافة، فيذكره بمكانته قبل الخلافة. غير أن نقطة هامة مخبوءة وراء هذين البيتين، وهي أن الشاعر يهدده بأنه يسهل عليه أن يكرر الموقف الذي كان أخوه فيه، يعني يسهل عليه تغيير الوضع السائد. ونلاحظ بوضوح فيما سبق أن الشاعر استخدم لغةً ساحرة في هجائه السياسي ضدَّ المأمون كما أنه قرنه بالتهديد والتهكم اللذين يتلازمان مع الهجاء. و يبدو أن هذه الميزة تختص بدعبل الخزاعي، فكم من شعراء عاصروه وشهدوا ما شهده الشاعر من الظلم والطغيان والانحراف، ولكنهم ظلوا صامتين لم ينبسوا ببنت شفة إماماً خوفاً وإمّا اكتساباً للجاه والمقام. لم يكن الشاعر أمام المأمون مكتوف اليد، وإمّا أعلن بلغة مدوية أن هذه الأوضاع لن تستمرَّ فلذلك يحذر الخليفة من أن يتمادى في غيِّه فيقول:

إِنَّ التَّرَاتِ مُسَهَّدٌ طُلَّابُهَا فَكَفُّ لِعَابِكَ عَنِ لِعَابِ الْأَسْوَدِ<sup>١</sup>

لَا تَحْسَبَنَّ جَهْلِي كَجَهْلِ أَبِي فَمَا حِلْمُ الْمَشَائِخِ مِثْلُ جَهْلِ الْأَمْرَدِ

(المصدر نفسه، ١٧٦)

ألصنا نجد في هذه الأبيات روح التحدى والإباء؟ "فطلَّاب الثَّار لا ينامون" كناية عن استعدادهم للانتقام والنيل من خصومهم ويحذر الخليفة أن ظلمه لا يعادل خطر الحية العظيمة، ويعرفه بأن حلم الكبار يختلف عن طيش الشباب وتمردهم متوسلاً بلون من المقابلة بين الجهل والحلم وبين الشيخ والأمرد.

#### ٤-١-٣. استلهام واستدعاء التراث القرآني

لقد أصبح استلهام التراث واستدعاء الشخصيات القرآنية ظاهرة هامة عند الشعراء الإسلاميين، ودعبل بوصفه شيعياً ممتازاً حاول قدر المستطاع أن يوظف التراث الديني في هجائه

<sup>١</sup> - التَّرات: مفردا ترة، الثَّار. الأسود: الحية العظيمة.

الساحر السياسي، فنراه قد اعتمد في تشكيل الصورة الشعرية على عناصر متعدّدة من التراث الديني في أشكاله المختلفة واغترف من معين الثقافة الإسلامية والقرآنية في نظمه السّاحر الذي اشتمل على جوانب معنوية وحسية، وجاء بعضه في إطار المقارنة التي تمببط بالمهجو، وتجعله الطّرف الناقص في حمل تلك الصفة، بينما في بعضه الآخر حمل الشاعر المهجو الصفة الموظّفة، بغرض إثبات النقص عنده بطريقة الهزل و التلاعب. اتّخذ استدعاء التراث عند دعبل اتجاهين:

أ.الإتجاه الأول لفظيٌّ ومعنويٌّ، إذ يذكر الشاعر ألفاظاً و يستحضر بعض المعاني، فنراه يستحضر أصحاب الكهف وكلبهم أثناء استهزائه من المعتصم الخليفة الثامن عند العباسيين:

مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ      وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمِ الْكُتُبُ  
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ سَبْعَةٌ      كِرَامٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ  
وَإِنِّي لَأَعْلِي كَلْبَهُمْ عَنْكَ رَفْعَةً      لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ  
كَأَنَّكَ إِذْ مُلِّكْتَنَا لِشَقَاتِنَا      عَجُوزٌ عَلَيْهَا التَّاجُ وَالْعَقْدُ وَالْإِتْبُ<sup>١</sup>

(دعبل، ١٩٧٢، ١٠٢)

لا شكّ أن هذه الأبيات مستوحاة من التراث القرآني، وقد أذاها دعبل بصورة فكاهية ظريفة زادت من جمال أسلوبها؛ وفي تشبيه الشاعر الخليفة بالكلب والعجوز دلالات تنم عن استياء عميق من العملية السياسية العباسية، ففي تشبيهه بالكلب نتلمس دلالة الخسّة والطمع في السلطة، وأما تشبيهه بالعجوز فيكشف عن عدم قدرة الخليفة على إدارة شؤون الحكومة، ما يعني أنّ الخليفة يفتقد لشروط رئيسين من شروط الخلافة اللازمة هما: الأمانة والقدرة.

فالشاعر يبدو في الأبيات السابقة ناقماً متأملاً المشهد السياسي، ومعبراً عن قمة المهازل السياسية التي آل إليها حكم العباسيين، إذ كيف يوضع الرجل غير المناسب في مكان لا يتناسب وقدراته على خلافة الأمة؟ الأمر الذي ينجم عنه الظلم والاستبداد، ومصادرة الحرّيات،

<sup>١</sup> - الإتب: بردٌ يشقّ فتلبسه المرأة من غير حيب ولا كمين.

وتكميم الأفواه وتضييع الأمانة.

ولقد وفق الشاعر في توظيفه لقصة أصحاب الكهف واستطاع أن يوجد معها علاقة مباشرة أقامها على التعليل. ولم يكن استلهاهم التراث عند الشاعر صدفة بل كان كما يرى الدكتور البستاني هادفاً و"انساقاً مع أصحاب الكهف الذين كان ثامنهم كلبهم، وهذا يعني أنه انتخب من أقصوصة أهل الكهف ما يتناسب وهدفه" (البستاني، ١٤١٤، ٥٢٣).

ب. أمّا الاتجاه الثاني من استدعاء التراث الديني جاء في إطار القصة القرآنية. فنرى دعبلًا الخزاعي يستعين بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسها، فولّى هارباً إلى الباب، فقدّ قميصه من دُبر، وأراد من هذه القصة أن يطعن في رجولة بني فضل. اسمعه يقول:

إِذَا رَأَيْتَ بِنِي وَهَبٍ بِمَنْزِلَةٍ      لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمْ الْأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ  
قَمِيصٌ أَنْتَاهُمْ يَنْقَدُ مِنْ قُبُلِ      وَقُمْصُ ذُكْرَانِهِمْ تَنْقَدُ مِنْ دُبُرِ  
مُحْتَكُّونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ فِي صِغَرٍ      مُحْتَكُّونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ فِي كِبَرٍ  
مُحْتَكُّونَ وَلَمْ تُقَطَّعْ تَمَائِمِهِمْ      مَعَ الْفَوَاطِمِ وَالذَّائِيَاتِ بِالْكَبَرِ

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٠٧)

ويأتي دعبل بصورة مختلفة الألوان والظلال إذ رسم قصة استمد عناصره من الصور القرآنية ويبلغ عمقاً ودقة في البيتين الأخيرين، فيصل بمهجوه إلى الحضيض، ويصرّح بلغة الاستهزاء والاستهتار. فالصورة هنا صورة إيحائية بعيدة عن الواقع، استعان فيها الشاعر بوسائل المبالغة والغلو للتركيز على عيوب المهجوه. "فخرجت سخريته صورة بين مستويين خطابين، لكن يبقى دعبل هو الذي يبتدع الأثر الأدبي في ذات القارئ أكثر من البناء الفني أو الظاهرة الأسلوبية، لأن ذاته أكثر بروزاً وحضوراً في نصوصه، فيبدو أحياناً متحكماً بمفردات الموقف

<sup>1</sup>- الخنك: الذي أحكمته التجارب، وحنكته الأمور: جعلته حكيماً. التمام: مفردة تميمية، وهي عوذة تعلق على الصغار مخافة العين.



ودلالاته" (عيسى، ٢٠٠٣، ٧٢).

وهنا نلاحظ خطوط المؤثرات التراثية في تكوين ثقافة الشاعر، وأهميتها في تشكيل صورته الفنية. والملاحظة الهامة التي يجب أن نتنبه إليها هي أن الشاعر باستلهاً واستدعاء هذه الشخصيات كموروث ديني قصد أن يكشف بعض حقائق ووقائع كثيراً ما اختفت وراء رداء زائف، فأراد أن يظهر حقيقتها بطريقة تلميحية بعيداً عن المباشرة والتقريرية.

#### ٤-١-٤. الصورة الاستدلالية

من الأساليب الرائعة التي استخدمها دعبل في سخريته السياسية، اقتراها بالصور الاستدلالية، وإن لم يبلغ في قدرته وعمقه الدرجة التي عرفناها عند الكميت الأسدي شاعر الشيعة في العصر الأموي، هذا لا يعني أن الشاعر لم يستطع أن يرسم صورة منطقية، بل السبب يعود إلى أن باب الهجاء أضيق قلماً يحتاج إلى الاستدلال المنطقي، وعلى الرغم من ذلك حاول دعبل أن يأتي أحياناً بأدلة منطقية وإن وقف عند حدود ضيقة. يقول في هجاء ابراهيم بن المهدي عمّ المأمون عندما اختاره أهل بغداد خليفة لهم في حين كان المأمون خليفة لهم في مدينة طوس:

نَعْرَ ابْنَ شَكْلَةَ بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ      فَهَقَا إِلَيْهِ كُلُّ أَطْلَسَ مَائِقِ  
 إِنَّ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُضْطَلَعًا بِهَا      فَلْتَصُلْحَنَ مِنْ بَعْدِهِ لِمُخَارِقِ  
 وَلْتَصُلْحَنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَزَلِ      وَلْتَصُلْحَنَ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمَارِقِ  
 أَنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنِ      يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسِقٌ عَنِ فَاسِقِ

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٤٤)

يرى الشاعر أن ابراهيم بن المهدي الذي دعا الخلافة لنفسه لا يليق أن يكون خليفةً وهي لا تصلح له، لأنه مغن لا يعرف أصول الحكومة والإدارة. هنا يستهزئ الشاعر بالسلطة العباسية الزمنية التي انحط شأنه إلى درجة يدعي فيها مغن الخلافة. ثم يفترض دعبل ويقول: إذا كان الخلافة جديرةً بمغن فأولى أن تكون الخلافة بعده لمخارق و زلزل، و هما مغنيتان مشهورتان في العصر العباسي، وهذا استدلال منطقي إلا أنه أقرن بالسخرية وزادت من شدته ولذعته.

و لا بدّ أن نعترف أنّ الشاعر هنا غلبت على شعره المباشرة والخطابية، وهذا أدّى إلى أن تفقد مقطوعته الكثير من جماليّتها. لقد لجأ دعبل هنا إلى خطاب جماهيري يستعرض الظروف السياسية السائدة و يعالج واقعها عبر أبيات قصيدته، فلذلك كان يهتم بالحدث أكثر من اهتمامه بالناحية الفنية، كما أنه كان يحاول لفت أنظار الأمة الى حقيقة ما يدور في الساحة السياسية العباسية بأقصى درجات الوضوح. وكان من مواقفه البطولية التي استفاد من قوّته المنطقية والاستدلالية هجاؤه للرشيّد حينما جاء المأمون بجثمان الإمام الرضا عليه السلام فدفعه بجوار أبيه، وقد سأل عن ذلك فقال: ليغفر الله لهارون بجواره للإمام الرضا فقال دعبل راداً عليه:

إِرْبَعُ بَطُوسٍ عَلَى قَبْرِ الزَّكِيِّ بِهَا      إِنْ كُنْتَ تَرْبَعُ مِنْ دِينَ عَلِيٍّ وَتَرِبْ  
قَبْرَانِ فِي طُوسَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ      وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعَبْرِ  
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسُ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا      ع\_\_\_\_\_ عَلَى الزَّكِيِّ بِقُرْبِ  
هَيْهَاتَ كُلِّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ      لَهُ يَدَاهُ فَخُذْ مَا شِئْتَ أَوْ فَذَرْ

(مصدر نفسه، ١٩٧٢، ١٩٨)

يشير الشاعر في الأبيات السابقة إلى أنّ مدينة طوس تتضمّن قبرين اثنين هما قبر الإمام الرضا عليه السلام وقبر هارون الرشيد، إلّا أنّه مفارقة كبيرة بينهما إذ أحدهما قبر خير الناس كلّهم والآخر لشرّ الناس. ثمّ يرى الشاعر هذا من عجائب الأمور ويقول: لا ينفع الرشيد شيئاً باقترانه للإمام الرضا، كما أنّه لا يضرّه شيئاً.

كما بيّنا أنّنا أنّ الشاعر قصد أن يقارن بين قبر الإمام الرضا عليه السلام وقبر هارون الرشيد، و نراه استخدم صوراً تضمينية واستدلالية في الحصول على غرضه الأصلي، أمّا الصورة التضمينية فتتمثّل في البيت الأخير: "هيهات كلّ امرئ رهن بما كسبت له يده" حيث ضمّن الشاعر لفظاً ومعنى الآية القرآنية ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١) وأمّا الصورة الاستدلالية فتتمثّل في قوله: "ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ — ولا على الزكيّ

<sup>1</sup> — اربع: قف. الوطر: الحاجة.

بقرب الرّجس من ضرر. ونرى أنّ الشاعر حصل على ما أراد تصويره ونجح لأنّ "نجاح هذه الصور يتجسّد في ركوها إلى الاستدلال القائم على أنّ تجاوز قبرين يفترقان في هويتهما إيجاباً وسلباً لا يعني تماثلهما من جانب، كما لا ضرر على ذلك من جانب آخر، وهو استدلال فتي ممتع كلّ الإمتاع دون أدنى شكّ، مادام الهدف هو إبراز الحقيقة التي تشير إلى الفارقة بين الإمام عليه السّلام وسلطان الدّنيا". (البستاني، ١٤١٤، ٥٢٤).

#### ٤-١-٥. الطابع القصصي

أضاف دعبل الخزاعي أسلوباً جديداً إلى سخريته السياسية وأدخلها في إطار قصصيّ وفي هذا الأسلوب " يتولى الشاعر نقل ما يجري بمفرده، ولا تخرج لغة الخطاب من زمامه، وهذا أسلوب تسجيلي تصويري" (محمد عويصة، ١٩٩٣، ١٥٨). اسمعه يقول في هجاء ابن عمران:

أَتَيْتُ ابْنَ عِمْرَانَ فِي حَاجَةٍ هُوَ يَنْبَغِي الخَطْبُ فَالْتَأْتَهَا  
تَظِلُّ جِيَادِي عَلَيَّ بِأَبِيهِ نُرُوثٌ وَتَأْكُلُ أَرْوَاتَهَا  
غَوَارِثٌ تَشْكُو إِلَى الخَلَا أَطَالَ ابْنَ عِمْرَانَ إِغْرَانَهَا

(دعبل، ١٩٧٢، ١٥٦)

يرى الشاعر أنّ ابن عمران إنسان يريد كلّ شيءٍ لمصلحته، إذا كان شبعاً لا يتذكر أحداً ولكنّه إذا أصيب بمكروه يتوقع مساعدةً من الآخرين وهو في ذروة البخل لا يبالي بمن أصبح جائعاً إذ بلغ بخله إلى حدّ يشكو الحيوان منه وتضطرّ الجياد أن تأكل روثها، فما بال الإنسان الذي يقصده في أمرٍ ما؟ لن يجيب ابن عمران إلى طلبه بلا ريب. فصاغ دعبل سخريته في شكل قصّة، ومهد لها بالحديث عن الحاجة والجياد والروث والخلا والشكوى وبالغ في عرضها، واستخدم بعض عناصر فنّ القصّة في شعره مثل سرد الأحداث والشخصيات وترتيب المشاهد المتتالية بحيث يشكل صورة تدلّ على قدرة الشاعر في إضفاء طابع قصصي على هجوه كما أنّها تدلّ على حساسية فنيّة مرهفة لديه. وقد نجح الشاعر في تحويل الصور الجزئية إلى لوحات كبرى كما أنّه نجح في خلق حركة داخلية بأسلوب سلس، وألفاظ بسيطة، وربما كانت هذه إحدى سمات السخرية عند الشاعر.

وأخيراً يجب أن نقول إن الخدمة الكبيرة التي قدّمها دعبل في هذه الفترة من تاريخ الإسلام هي أنّ سخريته السياسية تكشف للشعب الحقائق والأحداث بواقعية عميقة، وتجعل شعره نموذجاً من مظاهر المقاومة والتمرد على الجور والمفاسد السياسية والاجتماعية، ومن هنا تأتي أهمية شعره وتفرد في الشعر العربي. (حافظ، ١٩٧٣م، ١٤١).

### النتائج:

— كانت السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي تصبّ في مضمار دفاعه عن أهل البيت (عليهم السلام) و في هجاء العباسيين، و هي مستمدّة من بيئته الفاسدة التي حملته إلى التّضاد والمعارضة، و لم تكن فطرياً كما ظنّ بعض النّقاد.

— إنّ عقلية الحياة في تلك الفترة كانت أهمّ البواعث التي دفعت دعبلاً ليعطي شعره طابعاً ساخراً، وقد استغلّ الشاعر تلك الميزة أحسن استغلال للتركيز على مفاسد الحكومة، وقد ظهرت السخرية في شعره كتقنية أسلوبية ظاهرة تترجم مواقفه السياسية خير ترجمة، وهي وإن كان فيها تنفيس عن مشاعره إلّا أنّ هدفه الأساس هو إيقاظ المجتمع ليقف في وجه حكامه الطّاغين.

— اعتمد الشاعر في شعره الساخر السياسي على ركائز متعددة لإيصال غرضه من السخرية السياسية، فرأيناه يطرق باب التهديد حيناً، والاستدلال والاحتجاج حيناً آخر، كما أنّه اعتمد على الشكل القصصي بعض الأحيان.

— فقدت السخرية السياسية عند دعبل كثيراً من جمالياتها بسبب خلوّها من الخيال إلّا أنّه تدارك ذلك بصوره المكتنفة وأخرجه من الرتابة والجمود، فنجح في استنارة التهكم والاستخفاف.

### المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

١— ابن برد، بشار. الديوان، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى،

القاهرة، ١٩٥٠م.

- ٢— إسماعيل، عزّالدين. في الأدب العباسي — الرؤية والفنّ — بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٥م.
- ٣— البستاني، محمود. تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى، مشهد، ١٤١٤هـ.
- ٤— البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله. مصر: دار المعارف. د.ت.
- ٥— الحاوي، ايليا. فنّ الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٦— الخزاعي، دعبل. الديوان، قدّم له: عبدالصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٢م.
- ٧— الشكعة، مصطفى. الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٣م.
- ٨— العشماوي، محمد زكي. موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- ٩— عطوان، حسين. شعراء الشعب في العصر العباسي الأول، طبعة جمعية عمّال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٠م.
- ١٠— عيسى، عبدالحق. السخرية في الشعر العباسي القرنين الثاني والثالث، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣م.
- ١٠— القيرواني، أبوعلی الحسن بن رشيق. العمدة في صناعة الشعر ونقده، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٠٧م.
- ١١— محمد الحوفي، أحمد. الفكاهة في الأدب العربي وبعض دلالاتها، طبعة جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٦٧م.
- ١٢— محمد عويصة، محمد. دعبل بن علي الخزاعي (الصورة الفنية في شعره) دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٣— مغنية، حبيب. الشعر السياسي من وفاة الرسول إلى نهاية العصر الأموي، دار البحار، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ١٤— هدارة، محمد مصطفى. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

## طنز سیاسی در شعر دعبل خزاعی

جمال طالبی قره قشلاقی<sup>۱</sup>، عبدالغنی ایروانی زاده<sup>۲</sup>، نصرالله شاملی<sup>۳</sup>

### چکیده

دعبل خزاعی بزرگ‌ترین شاعر شیعه در دوره عباسی اول و آغاز دوره دوم به شمار می‌رود، دوره‌ای که از نظر سیاسی، به استقرار ثبات و آرامش، و از نظر فکری و مذهبی به کثرت مذاهب و عقائد معروف بود. دعبل در کوفه زاده شد و از سرچشمه تعلیم شیعه بهره برده و روحش بدان سرشته گشت. ظلم و ستم را از همان آغاز احساس کرد و ملقب به شاعر هجایی شد که چوبه دارش را پنجاه سال به دوش کشید و کسی را جست‌وجو می‌کرد که تنش را بالای آن ببرد. این شاعر در بسیاری از اشعار خود به مقابله با انحراف و اوضاع سیاسی فاسد پرداخته و در بیداری افکار عمومی جامعه عباسی نقش مهمی ایفا کرد. در بررسی اشعار دعبل با رویکرد سیاسی مشخص شد که او در هجو خلفا و وزرا و والیان حکومت عباسی و نقد اوضاع سیاسی طنز را دستمایه خود قرار داده و بواسطه آن توانسته حکومت عباسیان و اوضاع و احوال پریشان آن، و انحطاط و هرج و مرج موجود در این دوره تاریخی را به تصویر کشد. با دقت در اشعار سیاسی دعبل با رویکرد مورد اشاره مشخص شد که قصد وی طنز صرف به منظور خنداندن مردم نبوده، بلکه از این کار اهداف سیاسی و اجتماعی سازنده‌ای داشته است. این مقاله به بررسی رویکرد طنز در شعر سیاسی دعبل پرداخته است.

**کلید واژه‌ها:** ادبیات شیعه، طنز، شعر سیاسی، دعبل خزاعی، عصر عباسی.

<sup>۱</sup>. دانشجوی دکترای زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

<sup>۲</sup>. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

<sup>۳</sup>. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان